ندوة "أدب الحج" في مكة المكرمة

٤-٦ ذو الحجة ١٤٢٢/١٦-١٨ فبراير ٢٠٠٢

محمَّد الطَّاهر الميساوي*

تمهيد

تسعى وزارة الحج بالمملكة العربية السعودية وبتوجيه من وزيرها السيد إياد بن أمين مدني إلى إضفاء أبعاد ثقافية وفكرية على موسم الحج تكمل وتزكي المنافع التي يشهدها الحاج فضلاً عن أداء المناسك والشعائر. وتتمثل هذه الأبعاد التي تحرص الوزارة عامة والوزير شخصياً على ترسخيها وجعلها تقليداً ثابتاً متصلاً في إقامة ندوة سنوية إبان هذا الموسم الروحي الكوني الذي تشد له الرحال من ركن من كل فجٍّ عميق. ويُدعى للمشاركة في هذه الندوة بتقديم البحوث والمناقشة مفكرون مسلمون من بقاع العالم المختلفة ليتدارسوا موضوعاً معين ذي صلة بالحج شعائر وتاريخاً وثقافة، وذلك بغرض تعميق الوعي الثقافي والإدراك الفكري لدى المسلمين للأبعاد التوحيدية الحضارية الشاملة التي ينطوي عليها الحج والتي تمس الجوانب المختلفة لحياة المسلمين أفراداً ومجتمعات.

عقدت الندوة لأول مرة في موسم الحج لعام ١٤٢١هـ بمكة المكرمة تحت عنوان "التعارف الثقافي من خلال موسم الحج". أما انعقادها الثاني في موسم حج سنة

* محاضر بقسم الفقه وأصول الفقه – الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

١٤٢٢ فقد كان تحت عنوان "أدب الحج" لمدة ثلاثة أيام من ٤ إلى ٦ من ذي الحجة الموافق ١٦-١٨ فبراير ٢٠٠٢. وقد شارك في الندوة أكثر من أربعين شخصاً جاؤوا من بلدان مختلفة: من المغرب ومصر والأردن وإيران وباكستان واستراليا وكينيا ونيجيريا ولبنان وسوريا وتونس والجزائر والمملكة المتحدة والسودان وقطر وماليزيا وأندونيسيا وجنوب أفريقيا وغيرها من البلدان، فضلاً عن البلد المضيف. وقد استضافتهم جميعاً وزارة الحج ويسرت لهم ظروفاً مناسبة لأداء المناسك والشعائر وزيارة المدينة المنورة. ولم تقتصر المشاركة على الرجال كما قد يتبادر إلى الذهن، بل كان للمرأة حضورها الواضح في الندوة ليس فقط بوصفها مستمعة من وراء حجاب، وإنما بوصفها مشاركة في تقديم البحوث وفي المناقشات.

وربما أوحى عنوانُ الندوة بتناول البحوث المقدمة فيها وشمولها فنونَ الأدب بمعناه الاصطلاحي، بحيث يدخل فيها دراسةُ ما كُتب عن الحج من شعر وقصة ورواية ورحلة ومسرح. إلا أن واقع البحوث التي قدمت يفيد غير ذلك، إذ الشعر والرحلة هما اللذان استحوذا على اهتمام الباحثين مع غلبةٍ واضحة للنمط الثاني، أي الرحلة. وقد كان هذا التضييق لنطاق أدب الحج موضعَ ملاحظة ناقدة من وزير الحج في كلمته في الجلسة الافتتاحية للندوة.

وأياً ما كان الأمر يمكن تصنيف بحوث الندوة إلى مجموعتين أساسيتين تبعاً للفنين المذكورين سابقاً - الرحلة والشعر. وقد اشتملت المجموعة الأولى على عشرة بحوث يمكن تقسيمها هي الأخرى ستة أقسام حسب المناطق التي ينتمي إليها كاتب الرحلة. فعن شمال أفريقيا قدم الدكتور سعيد بنسعيد العلوي (الرئيس بالنيابةلجامعة محمد الخامس بالرباط) دراسة عن رحلة الشيخ محمد الحجوي الثعالبي الذي شغل منصب وزارة الأوقاف بالمغرب خلال الثلاثينيات من القرن العشرين فضلاً عن أنه كان من كبار علمائه في القرن ذاته، كما قدم الشيخ محمد الأمين البزاز دراسة عن "ظروف النقل البحري والحجر الصحي في أدب الحج المغربي خلال القرن التاسع عشر" مقتصرين بذلك على المغرب الأقصى.

أما عن أفريقيا فقد قدم الدكتور حامد بوبوي (من جامعة أحمدو بلو بنيجيريا) بحثاً عن رحلتي حج كل من مانسا موسى سلطان مالي (١٣٠٧-١٣٣٢م) وأسكيا محمد ملك السنغاي (١٤٩٢-١٥٢٧م) حيث وصفهما بالملحمة اعتباراً لما رافقهما من

مظاهر استعراض القوة والجاه طوال المسير ذهاباً وإيابا. وعن أندونيسا قدم الدكتور سوهرين محمد صولحين (من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا) بحثاً عن انطباعات عدد من الحجاج الأندونيسيين ورؤاهم حول تجاربهم في رحلة الحج فيما كتبوه من كتب أو مقالات. أما السيد علي قاضي عسكر (ممثل إيران في منظمة المؤتمر الإسلامي بجدة) فقد خصص بحثه للمشكلات التي يعانيها الحجاج كما جرى تصويرها في كتب الرحالة الإيرانيين.

ومن ناحيته قدَّم الد كتور أحمد عبد الرحيم نصر (الأستاذ بقسم علم الاجتماع بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا) بحثاً عن رحلة الأميرة الهندية نواب سكندر إلى البقاع المقدسة سنة ١٨٦٤ تلك الرحلة التي قدمتها في شكل تقرير إلى الملكة فكتوريا، ملكة بريطانيا. ورصد الدكتور يوسف حسن العارف (مدير إدارة الثقافة والمكتبات بإدارة التعليم بجدة - المملكة العربية السعودية) عدداً من رحلات الحج في المشرق الغربي من أوائل القرن الثالث عشر حتى العقد السادس من القرن الرابع عشر للهجرة، وهي رحلات أغلبها من مصر الشام واليمن. وعن تركيا استمع المشاركون في الندوة إلى عرض بحث أعده الدكتور إحسان فضلي أوغلو، وقرأه نيابة عنه الدكتور أبو بكر باقادر أستاذ الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع بجامعة الملك عبد العزيز بجدة والمستشار الثقافي لوزير الحج والمنسق لأعمال الندوة إعداداً وتنظيماً.

الرحلات التي استعرضتها البحوث المشار إليها كان أصحابها ينتمون تقليداً وتاريخاً إلى أوساط أو مجتمعات إسلامية. وهي - بما تشتمل عليه من معلومات وانطباعات وتعليقات بل وخواطر - تمثل مصدراً تاريخيّاً مهمّاً وثريّاً وموردا خصباً للدراسة الاجتماعية والثقافية والسياسية والجغرافية لأطوار مختلفة من أطوار تاريخ المسلمين ولمناطق متنوعة من عالم الإسلام، فضلاً عن البعد الروحي والفكري الذي يسمها بصورة عامة. ويمكن القول بناءً على ما جرى تقديمه في الندوة إن المادة التي يوفرها هذا النمط من الإنتاج الأدبي ما تزال بكراً من حيث الدراسة والتحليل العلمي الناقد الذي يقربها ويسيغها لجمهور القراء بما يجعلها تسهم في بناء ثقافة الإنسان المسلم وفي ثقافة الأمة عموما.

وفي إطار أدب الرحلة هذا لم يكن العالَم غير المسلم غائباً، فقد قدمت ثلاثة بحوث عن رحلات أشخاص لا ينتمون إلى بلاد الإسلام بحدودها التاريخية التقليدية. وفي هذا

الإطار استعرض الدكتور عبد الله عقيل عنقاري أربع رحلات واحدة قام بها مواطن إيطالي في مطلع القرن العاشر/السادس عشر، ورحلتان قام بهما مواطنان إنجليزيان واحدة في نهاية القرن الحادي عشر/السابع عشر والأخرى في أوائل القرن الرابع عشر/القرن العشرين. أما الرحلة الرابعة فأداها مواطن أسباني أوائل القرن الثالث عشر/القرن العشرين. وقد تنوعت وتباينت دوافع هذه الرحلات وأغراضها بين حب المغامرة والاطلاع والسعي إلى اكتشاف السر الذي يجعل المسلمين يحرصون على الوفود سنوياً إلى مكة في واد غير ذي زرع. وقد تمكن هؤلاء الرحالة جميعاً من أداء رحلاتهم والدخول إلى مكة بعد أن تنكروا وظهروا في مظهر أشخاص مسلمين من إتقان للعربية وأداء لبعض شعائر الإسلام، بل إن منهم من انتحل لنفسه نسباً إسلاميّاً ألحقه بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وعن فرنسا قدم الدكتور محمد خير البقاعي (من جامعة الملك سعود بالمملكة العربية السعودية) قراءة في كتاب الدبلوماسي والرحالة والمصور الفرنسي جيل جرفيه كورتلمون "رحلتي إلى مكة المكرمة"، وهي رحلة تمت فى أواخر القرن التاسع عشر. وتتميز هذه الرحلة عن الرحلات الأوروبية السابقة بكون صاحبها كان قد اعتنق الإسلام على الرغم من الظروف التي أحاطت بها حيث كانت الإدارة الاستعمارية في الجزائر التي بدأت منها الرحلة تسعى للاستفادة منها لحساباتها الجاسوسية والسياسية. وأخيراً قدمت الأستاذة يوكو (سارة) تاكاهاشي عرضاً لأربع رحلات حج من اليابان كان القائمون بها من المعتنقين للإسلام، وقد كانت أول رحلة حج يابانية سنة ١٩١٢ . ومن طرائف هذه الرحلة لأول حاج ياباني - وقد كان اسمه عمر ياماوكا - أنه كان يسأل مرافقه أثناء أداء مناسك الحج عن محلّ صنم الكعبة.

وقبل الانتقال إلى المجموعة الثانية من بحوث الندوة، تجدر الملاحظة أنه كان هناك إغفال ليس له ما يسوغه - في نظر كاتب هذا التقرير - لأدب الرحلة الحجية الذي أنتجه أوروبيون مسلمون في القرن العشرين بعضهم ما زال على قيد الحياة، وقد تميزيت كتابتهم بألق روحي وفكري قد لا نجده في كثير من رحلات المسلمين ذوي الانتماء التاريخي للإسلام. ويمكن الإشارة على سبيل التمثيل لا الحصر إلى ما كتبه محمد أسد وأحمد دنفر ومراد هوفمان. والملاحظة الثانية في هذا السياق تتمثل في عدم

مشاركة باحثين مسلمين غربيين - أوروبيين وأمريكان - كان يمكن أن يقدموا دراسات مفيدة في موضوع رحلة الحج هذه.

ولننتقل الآن إلى المجموعة الثانية من بحوث الندوة، تلك التي اختصت بفن الشعر من أدب الحج. قُدمت في هذا الإطار خمسة بحوث منها ما هو خاص أي تناول الموضوع من خلال شاعر معين، ومنها ما غير ذلك بحيث سعى إلى استيعاب مرحلة معينة أو عصر محدد متتبعاً ما أنتج من شعر عن الحج في أبعاده المختلفة. وفي هذا الصنف الأخير تندرج بحوث كل من الأساتذة الدكتور إبراهيم بن عبد العزيز الجميح (من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة) والدكتور محمد بكاري (من قسم اللغة الإنجليزية وأدبها بجامعة الفاتح بإستانبول) والدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم (أستاذ اللغات الشرقية وآدابها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض). فالبحث الأول استعرض فيه كاتبه بصورة خاصة تطور أدب الحج في الحجاز شعراً ونثراً من العهد النبوي حتى نهاية العصر الأموي، ساعيّاً إلى تلمس ما يعكسه ذلك الأدب من تحولات في الثقافة والسياسة والمجتمع.

أما البحث الثاني فقد رصد التجليات الفكرية والثقافية لتجربة الحج في الأدب السواحلي (أي باللغة السواحلية) في بلدان القرن الأفريقي وما كان لذلك من أثر في ترسيخ الثقافة الإسلامية وتوطيد الأواصر الاجتماعية بين مسلمي تلك البلدان. وفي البحث الثالث كانت للمشاركين في الندوة سياحةٌ مع بعض الشعراء من شبه القارة الهندية باللغتين الفارسية والأردية.

أما الصنف الأول من بحوث هذه المجموعة الذي التزم بدراسة شاعر معين فيشتمل على بحثين، أحدهما للدكتور محمد رجب النجار (من كلية الآداب بجامعة الكويت) الذي اهتم بدراسة القصيد النبوي عند الإمام جمال الدين الصرصري (المتوفى سنة ٦٥٦ /١٢٥٠) محاولاً استجلاء ما تنطوي عليه أشعاره من تصوير لأوضاع الواقع السياسي والروحي والثقافي والاجتماعي والخلقي الذي كان سائداً في عصره ومبرزاً ما عبر عنه من رؤى ناقدة لذلك الواقع ومن مواقف رافضة له. أما البحث الثاني فكان بقلم الدكتور مروان قباني (من لبنان) الذي ركز على شعر الشيخ عبد الغني النابلسي الذي ضمنه كتابه "الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز"، وهو شعر فاضت به نفس الشيخ أثناء زيارته للحرمين الشريفين بمكة وطيبة.

أما البحثان اللذان لم يجر تصنيفهما في أي من المجموعات السابقة فكان أولهما من إعداد الدكتور سليمان عبد الغني مالكي (من السعودية) بينما كان ثانيهما من إعداد الأستاذ حسين محمد بافقيه والدكتور أبي بكر أحمد باقادر (وكلاهما من السعودية أيضاً). اهتم البحث الأول بدراسة الأثر الثقافي والعلمي للحج زمنَ سلاطين المماليك مبرزاً بصورة خاصة فرص التواصل والتبادل بين العلماء التي تتيحها رحلة الحج وما يتم فيها من إجازات علمية في مختلف فروع المعرفة الإسلامية وخاصة في الفقه والحديث.

أما البحث الثاني فقد حاول كاتباه أن ينظرا إلى تجربة الحج من خلال عيون أهل مكة والمدينة وما يتركه اختلاطهم بأفواج الحجيج القادة من كل فج عميق من آثار بعيدة المدى في أوضاعهم الاجتماعية والثقافية بل والاقتصادية من حيث كون الحج موسماً تنتعش فيه حياتهم وتنشط حركتهم على نحو يكسر الرتابة التي يعيشونها في باقي شهور السنة.

وبهذا تكون الندوة قد ناقشت ثمانية عشرة بحثاً خلال سبع جلسات. أما الجلسة الثامنة فقد كانت في شكل مائدة مستديرة ناقش فيها المشاركون الأفاق المستقبلية لأدب الحج من خلال تقويم عام لما قُدم في الندوة من بحوث وما جرى فيها من مناقشات. ثم ختمت الندوة بحفل حضره وزير الحج وتليت فيه توصيات الندوة التي قرأها الدكتور محمود عايد الرشدان (من كلية التربية بجامعة الزرقاء بالأردن). وقد استمع الحضور فضلاً عن ذلك إلى كلمتين أُلقيتا باسم المشاركين، واحدة ألقاها باسم الرجال الدكتور عبد السلام العبادي (وزير الأوقاف الأسبق بالأردن) والثانية ألقتها باسم النساء الدكتورة محبوبة مرشاوي بن نصر، كما تليت في الحفل تقارير عن الجلسات المختلفة.

ولعل من أهم التوصيات التي تجدر الإشارة إليها في خاتمة هذا التقرير تلك الخاصة بتأطير مجلة الحج التي تصدرها الوزارة شكلاً ومضموناً والحرص على جعلها مجلة إسلامية عالمية عاكسة لهموم المسلمين في مختلف بقاع الدنيا ومزكية لأبعاد الحج التوحيدية في مجالات الفكر والثقافة والاجتماع.